



لنفسه مكان الله حتى يجد ، وغالباً ما كان يجد .
فليس هو الذي ينعم في سورة من التقي الخاشع
بهذه الجملة : « مولاي ! لقد جلت مقاصدك عن
عقول الناس ! » وإنما يقول : « أنا خادم الله فيجب
أن أعرف علل تدبيره وحكم تصرفه ، إن
يكن على وجه اليقين ، فعلى وجه الحدس والتخمين » .
ففي رأيه أن كل شيء في الطبيعة إنما خلق على
مقتضى نظام عجيب ومنطق مسلم ، (لماذا) و(لأن)
بتمادلان دائماً في ميزان عقله . فالفجر يبرز ليستيقظ
الناس في مسرته وبهجته ؛ والنهار يفتح ليبتدئ
التمر وينضج الحصيد ؛ والمطر يهيم لتحيا الأرض
وترتوي الزروع ؛ والسماء يقبل لياوي الناس إلى
المضاجع ؛ والليل يحلوك ليلقوا بأنفسهم في
أحضان الكرى ؛ والفصول الأربعة إنما تنطبق
كل الانطباق على حاجات الزراعة . وهيات
أن تداخل القسيس شبهة في أن الطبيعة لا غرض
لها ، وأن كل شيء فيها إنما يخضع لضرورات
الوقت والاقليم والمادة . ولكنه كان يكره المرأة ؛
يكرهها من وراء وعيه ، ويحتقرها بمحض غريزته .
وكان كثيراً ما يردد قول المسيح : « أيتها المرأة ،

للطبيب الفرنسي جي رومبلسان بقلم أحمد حسن الزيات

كان الأب مارنيان يحمل اسمه الحربي ^(١) عن
جداره . والأب مارنيان قسيس كبير ^(٢) متعصب
ضاي الجسم نافر النفس ، إلا أنه مستقيم خير .
نابت العقيدة لا يتذبذب ، صادق الإيمان
لا يشك ، وهو يعتقد مخلصاً أنه يعرف الله ويستبطن
أسرار حكمته وأغراض مشيئته . كان إذا سار
أحياناً بخطاه الواسعة في ممشى مسكنه الربيع الصغير
ونظر في الشيء بعد الشيء ، قام في ذهنه هذا
السؤال : « لماذا خلق الله هذا ؟ » ثم يبحث
عن الجواب ويلج في البحث ، متخذاً بفكره

(١) كانوا في الزمن القادر يلقبون الجندي حين دخوله
في الخدمة بلقب . ومارنيان لقب هذا القس اسم مدينة إيطالية
تقع في الجنوب الشرقي من ميلانو . وقد انتصر فيها الفرنسيون
على سويسرة سنة ١٥١٥ وعلى النمسا سنة ١٨٥٩ .
(٢) كبير (grand) لقب كان يعطى للأولاد المتأخرين
في طبقتهم من المعلمين والكهنة والسادة الخ .

تعايش أمها في منزل صغير مجاور ، فكان يحرص كل الحرص على أن يحمل منها راحة ، ولكنها كانت على طرفها رعناء ساخرة . كانت تضحك منه إذا وعظ ؛ فإذا غضب عليها قبلته بقوة ، ثم ضمته إلى صدرها بشدة ، فيحاول هو مضطراً أن يتملص من هذا العناق الذي يبعث فيه مع ذلك نشوة السرور العذب بأيقاظه شعور الأبوة الراقدة في قرارة كل نفس

كان يحذنها عن الله ويسارها جنباً إلى جنب في مسالك الحقول فتجمل حديثه دَبرَ أذنيها ، ثم ترسل نظرها في السماء والمشب والزهر وقد ترامت في عينها سعادة الحياة وزهرة العيش ؛ فإذا رأت فراشة تطير عدت وراءها فقنصتها ثم صاحت : « انظري أعماه ما أجملها ! إن نفسي تنازعني إلى تقبيلها ! »

هذه الحاجة إلى (التقبيل) البادية في لثمها هوام الطير وحبّ الشجر ، أزججت القسيس وهاجت بلابل صدره ، لأنه رأى هنا كما رأى هناك هذا الحنو المتأصل الثابت الذي ينبت دائماً في قلب المرأة . وفي ذات يوم أقبلت امرأة سادن الكنيسة ، وهي مدبرة منزل القسيس ، مخبر الأب مارنيان في حيلة شديدة أن ابنة أخيه عاشقة ! كان القس يخلق لحيمته ففجئته روع الخبر فبهت ووجم ، وترك الصابون على وجهه وأقام ساعة لا يتحرك ولا يطرف . فلما ذهب عنه الدهش وتلب إليه الرشد صاح في وجه المرأة قائلاً : « هذا غير صحيح ! إنك تكذبين يا ميلاني ! »

واسكن المرأة القروية وضمت يدها على قلبها وقالت : « لعني الله يا مولاي القس إذا قلت في ابنة أخيك الكذب . أقول لك إن لها عاشقاً تخرج إلى لقائه كل مساء بعد أن تنام عين أختك ؛ وإنهما

هل بينك وبينى شركة ؟ » ثم بعقب على هذا بقوله : « كأن الخالق نفسه ساخط على هذا المخلوق ! »

هي في رأيه الطفلة التي غشها الدنس اثنتي عشرة مرة كما زعم الشاعر ؛ وهي التي أغوت الانسان الأول ولا تزال تواصل عملها المهلك في بنيه ؛ وهي السكان الضعيف المخطر الذي يكدر صفو العالم في علن وخفية . ولقد كان يفيض روحها الجذاب أكثر مما يفيض جسدها المهلك ؛ وكان كثيراً ما يندسّم عليه حنان المرأة فيتغيظ من عاطفة الحب التي تمتلج دائماً في نفسها ، وإن كان هو في حصن منيع من تأثيرها . وهو يرى أن الله لم يخلق المرأة إلا فتنة للرجل ومحنة . فهو جدير بأن يتقيا كما يتقى الشرك ، فلا يدنو منها إلا على حذر . ولعلها أشبه ما تكون بالفتح حين تبسط ذراعيها وتفتح شفيتها للرجل . كان لا يتسع صدره إلا للراحيات ، لأنهن نذرن أنفسهن لله فاعتصمن برعايته . ومع ذلك كان يقسو عليهن لأنه لا ينفك يحس في صميم قلوبهن المغلولة الضارعة ذلك الحنان الأبدي الذي يدرك - وهو قسيس - أثره في نفسه . كان يحس ذلك الحنان في نظراتهن وهي أشد من نظرات الرهبان اخضلالاً بالدمع وابتهالاً بالورع ، وبحسه في تجايبهن الروحي وقد اختلطت به عواطف جنسهن ، ويجسده في زعات جنهن إلى المسيح ؛ وذلك الحب يوغر صدره بالحنق لأنه يرى فيه حب المرأة وهوى الجسد . يحس ذلك الحنو المللون في وداعتهن أنفسها ، وفي رخامة أصواتهن لدى الحديث ، وفي أطرافهن الغضبية عند النظر ، وفي دموعهن المستكنية حين يؤنبهن بقسوة على خطأ كان إذا ما خرج من ديرهن نقض مسوحوه واندفع هرولاً كأنما يفر من خطر . وكان له بنت أخ

صفوفها المنظمة ترسم بالظلال على المشى افنانها
الريقة المخضرة ، على حين كانت شجرة زهر
العسل المتسلقة على جدار منزله تسطع بالنفحات
اللذيذة الحلوة ، فتطيف في المساء الفاتر الزاهر نوعاً
من الأرواح العطرية

أخذ القسيس يتنفس ملء رئتيه ، ويمب
النسيم كما يعب السكير الخمر ؛ ثم مشى وتبدل الخطو ،
مأخوذ اللب ، مشترك الخاطر ، لا يكاد يجرى على
باله ذكر ابنة أخيه . فلما صار بين الحقول
وقف يتأمل السهل كله وقد غمره سحر الليل البهى
وأغمره ضياء القمر اللطيف

وكانت الضفادع في كل لحظة ترسل في الفضاء
أناشيداً القصيرة الأبقاع المدنية الصوت ،
والبلابل البعيدة تضيف إلى ضوء القمر أغانيها
المتقطعة التي تهيج الأحلام وتحمض على القبل . ثم عاد
الأب يمشى وقد أحس فجأة بقلبه ينسرق وبقوته
تخور دون أن يعلم لماذا ، وود لو يجلس حيث كان
فيتأمل جلال الله ويتملي جمال صنعه !

وهناك على ضفة النهر قام صف عظيم من شجر
الحور متمرج مع الساحل ينبعث من خلاله
غماغم رقيقة من الأصوات المختلفة ، وفوق الشاطئ
الوعر ومن حوله انعقد بخار أبيض قد اخترقته أشعة
البدر فلمع وتفضض ، ثم غطى مجرى الماء بما يشبه
القطن الرقيق الشف

وقف القسيس مرة أخرى وقد تخللت قلبه
رقعة نامية لا تقاوم ، ثم تسخّلجه شك مريب ،
واستولى عليه قلق مبهم ، ثم نشأ في خاطره سؤال
من نوع ما كان يلقيه أحياناً على نفسه : « لماذا خلق
الله هذا ؟ إذا كان الله قد جعل الليل لباساً ونعاساً
فلا هو للشعور ولا للعمل ولا للذكر ، فلماذا جعله

ليلتين على ضفة النهر ؟ وتستطيع أن تراها
بعينيك إذا ما ذهبت هناك بين الساعة العاشرة
ومنتصف الليل »

أمسك الرجل عن خلق ذهنه ، وأخذ يمشى
ويُمنف في مشيه كدأبه في ساعات التأمل الخطير .
ولما استأنف حائق لحيته جرح نفسه ثلاث مرات
فيما بين أنفه وأذنه ؛ وظل طول يومه صامتاً متلداً
وقد انتفخت أوداجه من الفيظ ، وانتسف لونه
من الغضب . اجتمع فيه فزع القسيس أمام الحب
القاهر ، إلى حلق الوالد ذي الخلق ، والوصى ذي
الضمير تمكر به طفلة فتخذه وتسرقه . أضف إلى
هذين وجوم الأمانة الذي يمتري الأهل حينما تعلمهم
الفتاة أنها اختارت زوجها دون رأيهم وعلى رغبتهم
فرغ من عشائه ثم حاول أن يتلهى قليلاً بالقراءة
فلم يستطع ، وأحس بالفيظ تزداد فورته في صدره .
فلما دقت الساعة عشراً تناول عصاه ، وهي
هراوة ثقيلة من شجر البلوط يستخدمها دائماً في
جولاته الليلية كلما خرج إلى عيادة مريض .

نظر وهو يبتسم إلى العصا الضخمة ، ثم أدارها في
كفه القوية القروية دورات رحوة مهددة ؛ ثم
رفعها فجأة ، وهو بحرق الأرم ، وأهوى بها على
كرسي فخطمت مسنده . ثم فتح الباب وأراد
الخروج ، ولكنه وقف على عتبته مشدوهاً من
اقتلاق ضوء القمر ، وهو ضوء لم يشهد مثله قبله
أحد . وكان الله قد وهب الأب مارنيان فكراً
وناباً لا يهبه إلا الآباء الكنيسة ولأمراء القريش ،
فوقف ذاهلاً متأثراً بجلال الليل الساجي وجمال
القمر الشاحب !

كان كل شيء في حديقته الصغيرة غريباً في
الضوء اللطيف ، وكانت أشجارها المثمرة في

المختوضر ، وتحت قبة الشجر الخائض في الضباب
اللامع ، شخصين عشيان جنباً إلى جنب . كان
شخص الفتى أطول من شخص الفتاة ، وكان الحبيب
قد طوق بيده جيد الحبيبة ، وهو من حين إلى حين
يقبلها فوق الجبين . فبعث محضر الماشقين الحياة
فجأة في هذا المنظر الهامد ، فكأنه لاشتماله عليهما
وتماقه بهما إطار صاعته يد الله خاصة لهذه الصورة
كان الماشقان كأنهما كائن واحد ؟ وهذا

الكائن الواحد هو الذي خلق الله له هذا الليل
الساكن الساكن ، وقد أقبلنا نحو القسيس
كأنهما الجواب الحى أرسله الله إليه عن سؤاله

كان القسيس لا يبرح واقفاً وقد اشتد
وجيب قلبه ، وزاد اضطراب شعوره ، ولم يبق
لديه شك في أنه يشهد حدثاً من أحداث التوراة
كفرام (روت) و (بوز) ، وأن ما يراه إنما هو
قضاء لمشيئة الله أراد أن ينفذه في هذا الزخرف
الفخم الذي تحدثت عنه الكتب المقدسة . ثم
أخذت تدوى في رأسه آيات (نشيد الأناشيد)
بما فيها من صراخ الرغبة ونداء الجسد وحرقة
الفؤاد . فلم يملك أن قال لنفسه : « لعل الله قد
خلق هذه الليالي ليجمعها لفرام الناس غلالة من
الجمال الأعلى : » ثم نكص على عقبيه أمام هذين
الماشقين المتعاقبين وكانا لا يزالان عشيان :

تلك كانت ابنة أخيه وذلك كان حبيبها .
ولكنه الآن قد سأل نفسه : ألم يكن على وشك
أن يعصى الله ؟ أليس الله قد سمح بالحب مادام قد
أحاطه بمثل هذا السنا الباهر ؟ ثم ولى مدبراً وهو
ولهان خزيان كأنما دخل معبد لا يحق له أن يدخله !

أحمد حسن الزيات

أبهى من النهار ، والطف من المساء ، وأعذب من
الفجر ؟ » ولماذا يشف هذا الكوكب البلى
القرار حجب الظلمات فيكون أقرب إلى الشعر
والسحر من الشمس ؟ وكأنه خلق رصيناً كتوماً
ليفضى للناس أشياء هي أدق على النهار وأخفى ؟
لماذا كان أبرع الطيور المفردة لا تسكن في الليل
كما تسكن الطيور الأخرى ، وإنما تسجع بأغاريدها
وسط الظلام المضطرب ؟ لماذا ضرب هذا النقاب
الشفاف على وجه العالم ؟ لماذا يأخذ القلب هذا
الارتجاف ، ويملك النفس هذا الانفعال ، ويبتري
الجسم هذا الممود ؟ لماذا تظهر هذه المفاتن الغريبة
مادام الناس ضاحكين في أسرهم لا يرونها ؟
لن هذا الشهد السحري الجليل وهذا الفيض
الشعري الجميل الذي ينسكب من السماء على الأرض ؟



وحاول القسيس أن يجد لهذه الأسئلة أجوبة
فلم يوفق ؛ ولكنه أبصر هنالك على حواشي المروج